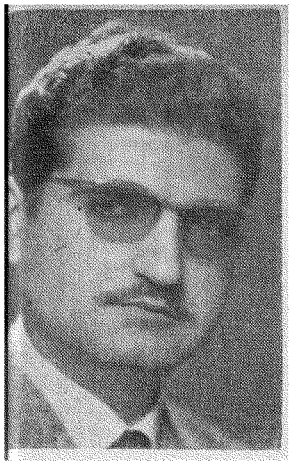

# قصيدة النثر، الكلمة المدنسة، الانسان ...
# "نشيد الرخام والشمس"

بقلم هاني صعب

« ان شأني في النقد اذا ما حاولته ،
كغمسك اصبعا من ظمأ في بركة شمس ،
او كارتكاض نحلة على منزلق ورد. فالتعاطف
عندي وحده احتمال نقد ، اذ قلما اختزن
سحابة جوفاء في يدي ، او اطنن في
خضرة طحلب . »

هـ . ص .

— أ —

« صديقي العزيز . لك عندي اعتراف صغير. وهو اني بعد قراءتي للمرة العشرين على الاقل، للكتاب الممتاز Gaspard de la nuit لـ « ألوسيوس برتران » Aloysius Bertrand ( كتاب انت وانا نعرفه ، ويعرفه بعض اصدقائنا ، أليس له ملء الحق بلقب ممتاز ؟ ) جاءتني الفكرة بان احاول شيئا من هذا النوع وان اتناول وصف الحياة المعاصرة ، او بالاحرى ، وصف حياة معاصرة واكثر تجريدا ، بالطريقة التي تناول بها تصوير الحياة القديمة المفتنة بغرابة .

« فمن منا لم يحلم في ايام طموحه ، بمعجزة نثر شعري ، مموسق من غير وزن ولا قافية . نثر طيع قليل العثار ، يوافق حركات النفس الغنائية ، وتموجات الحلم ، وقفزات الضمير ؟ »

هذا مما قاله « بودلير » لصديقه « ارسين هوسي » في رسالة صدر بها مجموعة قصائده النثرية . وكأنه بهذا الاعتراف ، يشق اهدابنا على اول رصد لنموذج ، يعده بعضهم اليوم ، كأميز واسطة للتعبير عن جيلنا بين احتفال الشعر التقليدي الرتيب وحيرة الشعر الحر .

على ان النقاد يلحقون ببرتران اسمين آخرين لا يجهلهما بودلير ، هما : « لوفيفر — دوميه » Lefèvre-Deumier صاحب « كتاب المتنزه » ( ١ ) . و « موريس دي جيران Maurice de Guerin صاحب قصيدة « القنطورس » ( ٢ ) النثرية ، المنشورة عام ١٨٤٠ في مجلة La Revue de Deux-Mondes ، وعدة رسائل اخرى حازت على تقدير سانت بوف ، يمكن ان نقتطع منها قصائد نثرية (٣) شبيهة بأسمى ما عند البحيريين الانكليز (٤) من خيالات .

ويدلون على ذلك ، بان نية بودلير كانت تميل اولا الى تسمية كتابه بعنوان « المتنزه الوحيد » فوق ما استعاره من عناوين لقصائد كالمرآة ، الجسر والساعة ....

( ١ ) مجموعة قصائد نثرية .

( ٢ ) حيوان خرافي نصفه الاعلى انسان والنصف الاسفل حصان .

( ٣ ) لسوء فهم حدود القصيدة في القرن الثامن عشر ، كانوا يطلقون اسم قصيدة على كل عمل ذي بناء قوي ، قادر على ان يفتن الخيال والاذن بجوه الشعري والموسيقي .

( ٤ ) نسبة لحقت بعض الشعراء الانكليز الذين عاشوا او ترددوا الى مقاطعة البحيرات في شمالي — غربي انكلترا وامتازوا بوصفهم للطبيعة والحياة العادية. من أهمهم : وردزوث، كولردج وسوذي.

وبعد ، فاذا كان بودلير تابعا ، فأية شمة تفاجئت على أجبن اولئك الثلاثة ؟

في رسالة بودلير الى صديقه ، يرجع ميلاد هذا النموذج المسيطر، الى مخالطة المدن الكبرى ، وتشابك علاقاتها التي لا يطالها حصر .

ويحتطب آخرون الجذور في أرض الطقوس المزروعة بالمزامير والزباحات .

واخرون يذهبون الى ان ذاك العصر ، وكان مرمى لبضع مجموعات من المنتجات الشعرية الاجنبية ، ظهرت بحجة الترجمة ، في ثياب قصائد النثر . وراحت تتعرى على مرأى من شبق المثقفين . فمجموعة « قصائد وأغان شعبية من المانيا » على الاخص ، الصادرة عام ١٨٤١ ، كان لها في وسطهم ، حماس اذن لاظفر نغم ، وعطش حلق الى رئة خابية .

قد تتراشق الافواه حول المنابع . وانما الحكم الذي لا ينوشه ضرس جدل ، هو ان بودلير كان المكهرب الواعي الاول لشريط الانطلاقة الحديثة . فان يكن « برتران » قد حبل ذهنه اتفاقا ، فان بودلير قد اقبل على عمله عن سابق تصور وتصميم في لغة القانون .

هذا في فرنسا . واما عندنا فأين اللقاح المثمر ؟

انه لا يختلف كثيرا عما هناك . الا اني أحصره في الترجمة والاطلاع المباشر ، وأستبعد العوامل الاخرى .

وثمة لقاح عندنا يجيء في الدرجة الثانية . هو بعض آثار جبران خليل جبران وميخائيل نعيمه في تأملاتهما المجنحة ( ١ ) .

والاهم في الواقع . هو تمردنا اخيرا على البيت الكلاسيكي . ورفضنا لكل قيد أو قاعدة مومياء . واتساع مفهوم كلمة « شعر » التي لم تعد تعرف بالوزن والقافية والا فهي نثر . واطراحنا القماقم التي تردد مثل هذه النفايات :

« ان غناء البلبل قصيدة شعر ، وغناء الاوزة قصيدة نثر »
( اوسكار وايلد )

« النثر انساني والنظم الهي »
( بول سوداي )

« النثر لا يوجد ، فحيث الجهد في الاسلوب ، هناك النظم »
( مالارميه )

لم يبق للنظامين التقليديين كسرة مجد . لقد هوت سدة العرش من تحت « اقفيتهم المزرقة » ، وتحطم الفخار المكدس على رفوفهم .

« الآلهة ذاتها تموت . ولكن الاشعار السامية تظل اقوى من الفلز » ( ٢ ) ، يهتف « تيوفيل جوتييه » .

اذن . ما الذي يرجح قصيدة نظم على قصيدة نظم ومن ذات الوزن ، ان لم تكن تلك الرقية الخفية المشعة التي اسمها « الشعر » . تلك الرقية التي ما مرت بأنملة على ساق كلمة ، الا وزرعتها في نهد

( ١ ) لن اطيل البحث هنا ، اذ القصد من هذا التمهيد ، هو ان اعرف القارىء باختصار بقصيدة النثر الجديدة على ادبنا ، كي يتمكن من متابعة الاحكام التي سأطلقها على « نشيد الرخام والشمس » .

( ٢ ) سبيكة من النحاس والقصدير .

نجمة سوداء كانت مع الخليل أو ضده ؟

وما الذي يشيل في عينك قصيدة لم تعبأ في سلك ، فتصيح : هذا شعر . ويخفض قصيدة منظومة ، فتصيح : هذا نظم ، نظم . برغم من ايقاعها المطرب الى حد الثمل ؟!..

نعم ، قد يزيد النظم من جمال الجملة الشعرية . ولكنه ليس مرادفا لكلمة « شعر » تبعا للعادة ، ولا نافيا لها في سواه .

نتيجة عدل في نظري ، أسوقها في زحمة الابواق العاوية حتى في وجه الوزن الحر ، لقصورها عن اللعب بمفاتيحه .

ان قصيدة النثر حاجة خلق مدنية . وليست نقضا او الغاء كما يظن البعض . فالحاجة لا تلغي الحاجة . وماكس جاكوب ، وبول ايلوار ، وريفيردي ، ورينيه شار ، وهنري ميشو مثلا ، لم يلتجئوا الى هذا اللون عن عجز . بل عن ضرورة لابداع لغة شعرية جديدة في المدنية الجديدة . وعن تشوف الى تسمير الحرية الانسانية على لوحة المدى . وبرهاني ، هو انهم يأكلون من ثمار الشجرتين حسب قابليتهم .

ولم أبعد ، ونقولا قربان صاحب « نشيد الرخام والشمس » يعطيني أيضا المثل الاقرب على ذلك .

أما اذا قيل لي : هوذا سان ـ جون بيرس كالسد العظيم يقصائد النثرية المحاض . فأجيب بان هذا الشاعر قد هرب من قيود ، ليزج نفسه في قيود اشد ، وأنظمة وهندسة وتكتيك اغرب جعلته خارج زمنه .

والان ما هي قصيدة النثر ؟ ( ١ )

ـ هي كل ما نريد ( فرنان ديفوار )
ـ انها لا تحدد ( اندريه مورا )

ـ هي ان تحرك حول فكرة ، أضواء النفس المختلفة ، على مسافة مقصودة ، بواسطة جمل مقطعة الى فقر ، تسمح للشاعر ان يظهر بهيئة قطع شاملة وموجزة ، مثل تلك الايقاعات المباشرة للفكر المنسقة في العروض . ( مالارميه )

ـ هي كل نثر في اطار محدود ، يغلف فكرة ، صورة شعرية اصلا ، بأسلوب مباشر ووجيز اختياريا . ( جاستون بيكار )

ـ هي قطعة من نثر مأسورة بكفاية ، متحدة ومشدودة الى ذاتها ككتلة بلور تلعب فيها مئة انعكاسة مختلفة . ( جالو )

نحاتة يسيرة ما ترى ، من جدار التحديد لقصيدة النثر . الا انها تفي لتشك في دربنا ركائزها الثلاث التالية التي انتزعتها « سوزان برنار » مؤلفة الكتاب الضخم Le Poème en Prose

من حزمة أضواء وهي :

ـ الايجاز او الحصر
ـ الثقل
ـ المجانية ( ٢ )

( ١ ) كثيرون يخلطون بينها وبين الشعر المنثور . ان هذا الاخير مشتق من الشعر الحر ومقلد له . في حال ان قصيدة النثر تقف كتعفية فعلية مستقلة وكجوهر غنائي وفقا لاصول صارمة كما الشعر الموزون . وانما عرضية لم يملها الاستعمال .

( ٢ ) على قصيدة النثر ان تشغل كل عنصر من داخلها او خارجها في اهداف شعرية بحتة . اي ان لا تنبسط كما الاسلوب النثري الوصفي او القصصي الروائي في تتابع الاعمال والافكار . بل ان تعرض ذاتها ككتلة لا زمنية . والا انغمست في النثرية الخشبية الصدى .

ـ ب ـ

و « نشيد الرخام والشمس » ، هذا العطاء الخصب ، يقدم من شيئية قصيدة النثر بمقدار . كل قطعة فيه الا القليل القليل ، عالم مغلق على نفسه ، وكتلة مشعة محملة في حجم صغير بالمسافات الايحائية .

تعفية فنية جديدة ، تحبس الزمن في نسق ايقاعي خاص ، لتسلمه الى زمن منغم معقول ، قد انقذ من الجري المتصل في الصيرورة ، ودحرج في اللازمنية « كلا لا تدريجيا » . فالنهاية على مستوى البداية ذاته في القصيدة . والجمل تلف في دائرة ، تتناظر وتجهد في ادهاشنا واذاقتنا غفلة الزمن وأدراجه .

فأن تغط ريشتك في محبرة الازل ، وتخرج على اطرافها التاريخ المتعاقب مخثرا في اشكال متحركة في اللازمنية كما الموسيقى ، ذاك هو التخم الصوان للقصيدة بفرعيها الوزني والنثري بالاخص .

ويلقاك « نشيد الرخام والشمس » ابدا بعيون اربع من اي شباك تطل عليه . لقد قسم نقولا قربان قصيدته مثل بعض رفاقه الغربيين في النوع ، الى مقاطع متساوية ، يفصلها بياض او « حالات صمت » تخلق نغما وترفع « قاعدة روحية » للقصيدة ، وتوسع للايحاءات في كل مقطع ان تتطاول مويجاتها وتتذرى في داخلنا .

وهو كرفاقه الغربيين في النوع ايضا ، قد ادخل التقفية احيانا والتكرار والترديد بصور مختلفة او بكلمات وعبارات في اول المقطع او اخره . مما اعان الفكرة الشعرية على ان تلتف على ذاتها ، مثيرة بذلك الانفعال الدوري لدائرة مغلقة :

« وظل في فؤادي بلد عريش يتعرى ، وحقل خريفي الثمر ، وسرب طاووس بلا ريش ! وظل في فؤادي خليج بلا قمر ! امي ايا جميزة الدار ، كنت قارة الزهر ، وكنت خليج النار ، فمن صيرك مقبرة الثلج يا امي ؟ وظل في فؤادي خليج بلا قمر . » من ( جسد وغابة رياحين )

ان نقولا قربان ، اذ تمرد على قواعد الشعر المتعارفة ، شيد له مقصورة فردية صريحة تخبىء فوضى ساخطة ، تريد ان تصنع عالمها ثانية على هوى منها . وان تقيم النظام الذي تريد ازاء النظام الذي يوجد . حتى انه قد اتبع في غير مكان ، طريقا في عنونة قصائده ، توهمك ببعدها عن المحتوى لتقربك الى صواها بامعان من روية . فهو في « أرغن الصمت » يكور في جفنيك فتاة تتحدث الى امها عن احلامها الكبيرة . ويمر العنوان على لسانها :

« ولكني سأهب جسدي الى رجل تكثر المجاذيف في عينيه ، ويكون جسده كأرغن الصمت » .

وتعيد النظرة فتجد ان أرغن الصمت لم يكن ذلك الرجل البطولي المتطاول كالصمت وحسب . بل ان تلك الفتاة تحمله في بدنها ايضا ولا تدري . كانت كالمارد ، والمارد يحب كمارد ، وحب المارد لا يقدر حتى على ان يدفن في البيت ذي السوسن المانج ، كما يقول ناظم حكمت .

وهو في « ديكة وخيل عربية » يفيد من المعنى الوراثي ، اظن ، لهاتين اللفظتين . فالخيل معقود في نواصيها الخير . واما الديكة فلا تزال في سحر من نفثات مارس المحنق في اذني خادمه «اليكتريون» ابيها الاول . اذ صرخ به : اذهب اذن ، فلن تطعم عينك غمض الفجر ابدا ، وستفيق قبل الجميع لتصيح في النائمين : ألا هبوا ايها الغفاة ، فها أبوللو يجر عربة الشمس .

فأنت ان لم تقم المجالات الماورائية للفظة عند نقولا قربان تهمه

بالجنوح ، وتروح كما قد تفعل هنا ، باعتبار « ديكة وخيل عربية » جزءا من كل ورد في المقطع الاخير :

« ويقدم فلاحو النيل لفلاحي الارز ديكة وخيلا عربية وعلما للجمهورية مطرزا عليه شجرة الحرية » .

في حين انها رمز لليقظة الدائمة التي ننشد ، والخير الدائم الذي نستشرف ، وكأن صوت ديكة يهدر ، وكر خيول تحفر على جبين كل كوكب :

« ـ لن تكون ارضنا بستانا للحديد ولحم الاطفال ، انها بستان الكرمة والزيتون ، والشفاه التي تبارك الانسان .

ـ ولن نجعل انهارنا مدنسة الضفاف ، ولا شعر نسائنا كفنا لاجساد الجنود ، بل لصنع السفن المحملة بالخمر والموسيقى .

ـ والى الابد فليعانق مرفأنا جسد الشمس ، لان الفجر مطل علينا بين جبلين شاهقين » .

بمثل هذه المجالات ـ المفاتيح تمنحك نفسها تلك « الديناميمة المنفجرة » للغة « النشيد » . اذ ان المضمون متصل بها بوحدة الجوهر . فالكلمات التي تشكل القصيدة لا تنفتح من معناها الواضح، وانما من جميع كثافتها العنصرية ومن علاقات بعضها ببعض .

## ـ ج ـ

كانوا في القديم حين يتطهرون ، يأتون بكبش او بغيره من البهائم . ثم يضع كل يده عليه ، مفرغا دنسه ، ثم يسيرون به الى المحرقة . ( راجع اللاويين ـ التوراة )

بهكذا عقيدة ، يفرز صاحب « النشيد » هدبه في عرق الكلمة ساكبا فيها « اعصابه ودمه ، وطاقاته العقلية والنفسية » ثم يقصده ليشل حبلا من الهواتف الهاربة المفنطة .

الكلمات ـ هنا ـ انتهت من اللعب ، الكلمات تنحاب على حد تعبير « اندريه بريتون » في « الخطى الضائعة » .

الكلمات ـ هنا ـ وهذا ما علينا ان نعزمه في القصيدة خاصة ، تتعاكس حتى تظهر كما لو فقدت لونها الذاتي ، برأي « مالارميه » في « حديث عن الشعر » .

سوى انها ـ هنا ـ تختلف نوعا عما هي عند الرمزيين الذين سجنوها آونة في طلسم بارد ، وعما هي عند السرياليين الذين بدل ان يطوعوها بمهارة لتبدع صلات جديدة ، خضعوا لها ولقواها الكامنة ، وتركوها تتجاذب وتتجمع في صف غير اعتيادي ، قادها الى العبثية .

ان للكلمة في « النشيد » نكهة مميزة ، اكتسبت قيمتها من هضم الشاعر لمزيج من المفاهيم .

ولعل من اكثر ما تصادف ، كلمة « اخضر » التي تعني الفرح والامل والبعث والنضارة .

ـ « الى الذين اشتهوا رائحة الرماد الاخضر .

ـ ويهرق على الدرب الصياح ( اي الديك ) وكأنه لم يولد من مجموع احلامنا الخضر .

ـ ولد اليوم عندنا مسيح جديد ، عامل من العمال الطيبين ، له عينان كزنبقتين خضراوين .

ـ واصوات في الغاب ، صوت فأس مزنرة بذراع ، وتأكل من كف ومن كتف ومن عري الشعاع ، وتفيق مع الذئاب والقطيع والضباب ومع الربيع في مقالع الحجر الاخضر .

حتى طائر « الفينيق » يتدفأ بخيوطها :

« ويحترق على شفتيه الطائر الاخضر ، طائر الحب الذي يحيا من الرماد » .

كأن الشاعر يغني لهذا اللون بلسان غارسيا لوركا في « اغان عجرية » :

« ايتها الخضرة ، انت التي احبك ايتها الخضرة
يا خضرة الريح وخضرة الاغصان
الحصان في الجبل
والزورق في البحر
وشريط ظل على قوامها
وهي تحلم على شرفتها
بخضرة وجه وخضرة شعر
وأحداق من معدن بارد
أيتها الخضرة انت التي احبك ايتها الخضرة » .

ويأتيك نداء كلمة « الشمس » وسع حنجرة « النشيد » هذا النداء يخبرنا عنه « رامبو » في هذه الابيات :

« الشمس ينبوع الحنان والحياة
تسكب الحب المحرق على الارض المحرومة
واذ نرقد في الوادي ، نحس
بأن الارض مراهقة وتزخر بالدم ،
وبأن صدرها الرحب ، وقد شالت به نفس حارة
هو حب كالله ، وجسد كالمرأة » .

ولكن « الرخام » ذاك الجسد ذا « الوجوه الشبيهة بالاهلة الناقصة ، والعيون المشقوقة مساكب للحزن ، والشفاه التي ماتت عليها انفاس القمر . الرخام البائع دمه وعرقه بالمزاد ، والساقط كأوراق الخريف ، والساكن الغرف الصغيرة ، ذات الحجار التي يهب منها البرد كما يهب من النبع طير البجع ، والذي يتطلع الى الشمس في مرآة مكسورة فاذا هي قنديل خريفي مكسور » . اقول ولكن « الرخام » يكاد يرفع دفتي « النشيد » على منكبيه اللذين يعظمان الى ان يصبحا خبزا للنسور :

« ايها العمال انتم خبز النسور ، وأتعابكم هي العروق الثائرة في رخام المدينة . ولو لم تسكبوا رخامكم في شفاه الآلهة المفترسين ، لما عاش منهم صعلوك واحد . فليغسلن أقدامكم نهر البنفسج ، وفي مطلع التشارين الحمر فلتمسحن جباهكم بالخمر ! »

ومما تصادفه غير مرة ايضا كلمة « القمح » التي فطر الشاعر بها اصداء كثيرة ، جعلها في قصيدته « موسم القمح والاقمار » .

وكلمة « النحاس التي تعني الفراغ والجدب تارة كما في :

« الى الذين ما أمرع البنفسج في أحداقهم ، بل كانوا من حصادي النحاس والصمت » .

وطورا الاناشيد والخصب والعافية كما في :

ـ « انا الشرق صناجتي الفرح ، ونحاسي في مآقي الاطفال .

ـ ولي دعاء بآسيا وبافريقيا دعاء : بأن ادفن جباه الفاتحين وكرابيج المستعمرين ، لكي يولد النحاس والقمح في قلوب الفقراء .

وكلمة « الرماد » التي تعني المرض والحزن في :

ـ « ويظل بيتنا مرساة في خليج البرد ... وجرحا ينز بالرماد والقلق المصفر .

ـ هذا الفقير الذي ازدهر في عينيه ضحك الغربان ، وتجمع في حنجرته رماد الخريف » .

وتعني المحرقة ورائحة الموت او التقاليد العفنة في :

« الفراغ الذي ازدهر رمادا على شفاه رجال الدين »

وتعني القساوة ويباس العاطفة في « يوميات شيخ جوعان » :

« ثم غابة من ظلال الناس ، راحت تصطك بها قدمي على قارعة الطريق ! ظلال بلا غفران ! مآقيها مملوءة بالعاج والرماد » .

وتعني الفرح والخير في :

« الى الذين اشتهوا رائحة الرماد الاخضر » .

اخالك لاحظت مما أوردت لك على سبيل المثال ، ان الكلمة في « النشيد » تعلق بخليط ادناس . ذاك ان الكلمة في الشعر ، وفي الشعر الحديث بالتخصيص ، لا توجد وحدها ولنفسها . بل تتنزل في وحدة الجملة وتسترق من انعكاسات جاراتها ـ كما سبق وقلت ـ التي تتضافر على حمل الدنس المتجسد اخيرا صورة سوية .

ان هذه الصورة التي تتركب من بعض كلمات أي أدناس ، هي

التي تضع يدها على الكلمة لتهبها دنسها الخاص . وكلما كانت غير مألوفة ، كلما اوسعت مرايا المسقط الذهني وأمدت النطاق الانساني بابعاد .

ولما كان نقولا قربان شاعر صورة . فانه قد سعى الى حذقها وتطويرها ، فوق نمو تفهمه لوظيفته كشاعر حديث مسؤول .

كان في « نيسان » مجموعة قصائده النثرية الاولى ، يخط احيانا الصورة للصورة، كبعض صور جماعة «هيوم» و « ازرا باوند » . او يتجه الى الطبيعة ليصف الانسان الصرف ، والطامع في ان يقبض على النسب الصحيحة القائمة بين فكرة الانسان وفكرة الكون ، والتي يعبر عنها بواسطة الصورة .

وذلك في شعر لم يجيء تركيبا فوقيا موضوعيا ، ولا مواقف عقلية او فكرية معينة بل كان كشفا لمعنى الكائنات والاشياء على الذات في حدود الممكن . او انتقالا من الواقع المحسوس الى واقع لا محسوس متصل بتجربة الشاعر الشخصية ومحيطه وانطباعاته الفولكلورية . او تشبيها معجبا من وحي الملاحظة الدقيقة .

الصورة الحسية سمة هذا الشعر .

وبما ان نقولا قربان ابن القرية فقد استعار الكثير من اجوائها وعاداتها ، متعمقا في الروح الطيبة الخيرة ، باحثا عن البزور التي « يبزغ من مطلعها النهار ، ويصنع الناس من قلوبها ملاعق الفضة ، وتوزع العرق عبارات طاهرة » .

## ـ د ـ

« انها قطع من عالم بعينه » . هذا ما لحظه « مارسيل بروست » في كتابه « السجينة » في لوحات « فان درمير » .

وهذا ما يمكن ان يقال عن آثار كل شاعر شرعي .

ونقولا قربان في « نشيده » ، لا يضيق بهذا الخاتم . هناك مناخ حيوي تتنفس فيه القصائد ، فتحس وانت تقلبها ، بنبرة مرنة ، او مكتومة ، تترجع دون فتور ، في ضفاف نهر الامل والفرح والحرية، ونهر الشعب .

« الى الذين اشتهوا رائحة الرماد الاخضر » . كانت النقرة الاولى على وتر هذا « النشيد » .

تزاوج في اللفظ ، يعود الى تأثر الشاعر بجو القرية . ففي القرى عادة ، يستعملون الموقد والوجاق للطبخ والتدفئة . والبيت الذي يشتهي صهيل موقد ووجاق يغصان بالرماد ، بيت حجاره تسعل على كف بومة . و « قفص ملعون » تختنق فيه الفصول، وضحكات التراب الخضراء التي تولد مع طائر الحب الاخضر ، طائر الامل والبعث والحرية ، الذي يحيا من الرماد .

نقرة اولى ، تخزن بغنى المشاهد المتعددة للانسان الذي سيضج به « النشيد » .

فهو اما صبية تستحلف امها :

« احلفك يا امي باسم الحب ، لماذا ولدتني في الظل ؟ فلكم اشعر ان جسدي ورقة يابسة على كتفي ، أحلفك بالحب يا امي ، أيتها الافعى الزرقاء ، لماذا ولدتني هكذا كحصاة في الصقيع ؟ ولكنني سأعيش ولاجعلن جسدي هيكلا لثورة يجدف فيه جميع الصعاليك » .

أو كمحمود الذي كان يقف على الطريق ويده تقرع جرس الحقد :

« وقف محمود يمد يده على الطريق ، والشمس جمجمة في كيسه . وفي عينيه عشر سنوات كغصن زيتون ممحل . وكان يحس اعين الناس تلسع جلده كقفير النحل » ....

أو كسائلة تهيب بمار ثري ، مقفل القلب والجيب ، ان ينقدها درهما بشكل الضحكة الحمراء ، وتروح تردد على مسمعه المحشو بالرمال والاصداف :

« لو كان عندي ثمرة لزرعت في قلبك نواتها الحية . واذا لذعتك الشمس تعال استظل بكفي » .

أو كنبي ، ابن عامل من البسطاء ، ولد :

لـ « يبشر بالعطاء ، وبموت الحروف السوداء والايدي التي تخنق البراعم » .

الفقراء (١) في مشاهد ، اطار هذه المجموعة ، التي تقدس هياكل الحرف الذي له رائحة الثورة والعمل . الحرف الذي يتحول الى صندل لمتسول ، ويشعل العاصفة في محجري محمود ، ويصرخ مع اصوات المناجل والمعاول والفؤوس والالات : الفد ، الفد ، الفد ، للفقراء :

« وبعد ايام ستولد اقمارنا الجديدة . يوم لا يموت بليل في قفص ، ولا يهدم المدفع الجدران ، ولا ينبت الغار على رفات الاخرين ، وبعد ايام ستملأ مزارعنا الاقمار ، فترى عيون البائسين ، مثل عناقيد مرمر وذهب ، ضاحكة في قلال من القصب » .

ان نقولا قربان بتصويره اولئك الذين اشتهوا رائحة الرماد الاخضر ، يقدم لنا نماذج للانسان المتمرد . الانسان الذي يقول : لا ، ويكره كل ناقوس خائن ، وتندفق من قلبه شهوات الشعب ، ويحلم بالثورة وهو صبي . والذي تصطفق في جنبيه نوافذ الحضارة ـ ما زالت ـ

هذه الـ « لا » هي محور « النشيد » . وهي الدافعة اصلا بالشاعر الى تفجيرها زوابع نار من لحم ودم . انها تعايشه ، وتنقي على شفتيه فراشات صندوق بندورا .

قد تتحسس بعض النماذج ، واذا هي خلو منها لوهمك . والواقع انها من خلف هذا البعض .

ان قصيدة « بائعة الدجاج » مثلا ، هي لوحة قروية بسيطة هادئة النبرة قبالة اخوات لها . ولكنها تخفي نقمة مكتومة ، وقرفا مهموسا من الوضع الذي تتردى فيه البائعة ، وتطلعا الى مستقبل مجدل برائحة الرماد الاخضر من غير ما تصريح :

ـ « عندما ربطت دجاجاتي بأرجلها وحملتها الى السوق ، شعرت بالفراغ يملأ قلبي ، لانني عشت معها ، وأطعمتها على يدي ، وفكرت بها في ليلة عرسي .

ـ واني أشعر كلما بعت دجاجة او ديكا بغصة في صدري ، ولكننا فرويون فقراء ، وسنشتري بثمنها قميصا ولفافة لطفلنا الذي سيولد على عتبة الشتاء ، وستارا لنافذتنا المكسرة الزجاج ، لئلا تطفىء ريح الشمال سراجنا ويدهمنا الثلج والمطر » .

أسطر بعثت في نفسي ما أثارته هذه الابيات لناظم حكمت من قصيدته : « البنفسجات الصهباء ، الاصدقاء الجياع ، والطفلة ذات العينين الذهبيتين » :

« وانسل الصيف من امام أنفي
زاعقا بصرخات مجنونة
دون ان اتمكن من ان اجلب لك
باقة من البنفسجات الصهباء .
ماا لعمل
فالاصدقاء كانوا جياعا
فأكلنا ثمن البنفسجات » .

لقد استطاع الشاعر ، حتى اذا همس ، ان ينقلنا الى مدار الصخب، وان يغرس في ذواتنا بطريق غير مباشرة ما غرسه مباشرة .

ان عناصر مثل القدرة التصويرية ، والدراسة الدقيقة للوحات ، والارتباط الوثيق بالارض ، وحب الانسان ، والايمان بالكلمة المدنسة ، والروح المتمردة التي نطالعها لديه . يمكنها ان تشاء في الشعر .

عناصر تدعمها اخرى أوجزتها لك ، كان لها ان تبارك ، مفارق قصائد النثر في « نشيد الرخام والشمس » .

ترى ، هل هي وثبة « ايكارية » لقصيدة النثر ؟!..

**هاني صعب**

---

( ١ ) بهذا الاسم كان ينوي نقولا قربان اصدار مجموعته اولا .